لغة مسلمي الأندلس

بقلم الاب لامنس اليسوعي

باي لغة كان يتفاهم مسلمو الاندلس ؟

سؤالٌ ، قد يتسرّع الكثيرون من قرّائنا الكرام فيجيبون عنه بان لغة مسلمي الاندلس كانت العربية . ولم هذا التسرّع في الحكم ، ولا شيء يُجبر المسلمين على التكلم بذاك اللسان ، بل لا شيء يجبرهم على فهمه ؟ ونحن اذا دقّقنا البحث ، لا نعدم بلادًا اسلامية تتكلم اكثرية سكانها بلغة غير العربية . لنأخذ مثلًا بلاد مراكش ، بل بلاد الجزائر عينها ، فنرى لاكثرية اهليها تتفاهم بلسان بربري . على انه قد يعترض علينا احدٌ فيقول : وماذا نفعل بآداب الاندلس العربية ؟ فان ابن عبد ربه ، وابن رشد ، وكثيرًا غيرهما من كتاب الاندلس ، قد وُجدوا وعاشوا في تلك البلاد ، ولا سبيل الى انكار ذلك . ولقد كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية ، وهم انما فعلوا ذلك لاعتبارهم ان في معاصريهم ووطنييهم من يقرأ مؤلفاتهم ويفهمها .

ولكن لا يصعب دحض هذا الاعتراض ، وهو لا يختصّ باسبانية الاسلامية وحدها ، اذ ان هناك كثيرًا من البلدان استعملت لسانًا مزدوجاً يتفرّع ليس فقط من لهجتين مختلفتين للغة واحدة ، بل من طائفتين متباينتين من اللغات . فكان في كل من تلك البلدان لغة رسمية تستعملها الحكومة ، ولغة ثانية يستعملها الشعب وافراد الرعية في معاملاتهم . تلك كانت حالة سورية قبل الفتح العربي ، اذ كانت لغة البلاد السريانية ، او لهجة من الآرامية ، بينما كان مؤلفو ذاك العصر ، وهم سوريون ، ينشرون كتبهم باليونانية . وكذلك القول عن الرُّقُم المكتشفة في بلادنا فان اكثرها كان مكتوباً باليونانية او باللاتينية . ولم تنحصر اللغة اليونانية في سورية بكونها اللغة الرسمية ، كما كان اللسان التركي على عهد العثمانيين ، بل كانت ايضاً لغة المناظرات والتآليف العلمية

واننا نتحقق الحالة ذاتها في اوربة ، منذ القرون الوسطى حتى القرن السادس عشر ، حيث نرى في اكثر البلدان الاوربية كفرنسة ، وايطالية ، وانكلترة ، والمانية ، جميع العلماء ممن آباء الكنيسة حتى اساتذة الجامعات المختلفة ، ينشرون مؤلفاتهم ، ويتناظرون باللغة اللاتينية . ومنشوراتهم هذه تملأ المكاتب الضخمة في عصرنا . وكذا القول عن لغة المعاملات الإدارية ، والنقوش على النقود حتى ان انكلترة تحتفظ الى يومنا هذا بنقش لاتيني على ليرتها . فهل ينتج من هذه الآثار والوثائق العديدة ان الشعب ، في كل تلك البلدان ، كان يتكلم اللغة اللاتينية او يفهمها ؟ لا لعمري ! وليس احد ليزعم هذا الزعم !

* * *

جال في خاطرنا ذاك السؤال عن لغة مسلمي الاندلس بينما كنا نتصفح مجموعة اسبانية وصلتنا مؤخرًا ، وهي غاية في الاتقان . وذلك انه في السنة الفائتة ، احتفل علماء الاسبان ببوبيل مستشرقهم الشهير خوليان ريبيرا إي تارّاغو (Julián Ribera y Tarrago) بمناسبة مرور اربعين سنة على مباشرته التعليم العالي (١٨٨٧—١٩٢٧) . وبعد تلك الحفلة قام اصحابه وتلاميذه العديدون بنشر مقالاته المتفرقة ، في مجلدين كبيرين(١ . وقد كتب مقدمة تلك المجموعة المستشرق الاسباني المعروف، الاستاذ اسين پلاسيوس(Asin Palacios) فبحث فيها عن خدمات المحتفل به المتعددة في سبيل العلم والعرفان . وقد تأسف الاستاذ اسين على ان اعمال مستشرقي الاسبان تكاد تكون مجهولة كل الجهل . ونحن نرى تأسفه في محله لاسيما فيما يختص ببلادنا، لان جميع الذين اهتموا بدرس الاندلس ، من مؤلفينا العصريين ، جهلوا تماماً اعمال مستشرقي الاندلس ، ويكفينا ان نذكر اسمي البتانوني والنصولي ونقيس عليها باقي مؤرخي عصرنا

اما فيما يتعلق بالسؤال عن لغة مسلمي الاندلس، فهذا بالاختصار رأي الاستاذ

---

١) Disertaciones y opusculos, Madrid, Est. Maestre, 1928. Tome I, CXVI, 637; Tome II, 796 pp.

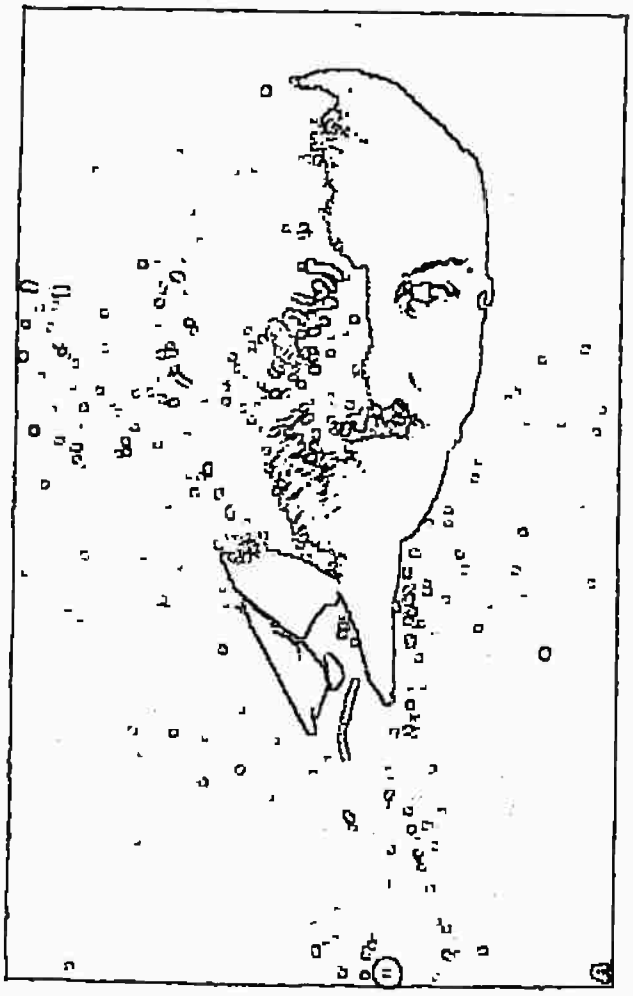

فولياده ريبرا

المستشرق الاسباني الكبير

ريبيرا ، ونحن نحيل المطالع على المؤلف نفسه حيث يرى البراهين الوافية (١ :

لم يكن بين المسلمين الذين قاموا بفتح الاندلس الا القليل من العنصر العربي الخالص ، فكان منهم قوّاد العسكر واصحاب الرُتب فيه ليس غير . اما اكثرية الجيش فكانت مؤلفة من البربر والافريقيين

وفضلًا عن ذلك فان عدد العرب الأقحاح كان ينقص باطراد متواصل ، بسبب الحروب الاهلية التي اثارتها عوامل المنافسة والطمع . فاذا تقرَّر هذا ، رأينا انفسنا مدفوعين الى الاقرار مع الاستاذ ريبيرا: ان نسبة العنصر العربي ، او الشرقي ، في تكوين الشعب الاسباني المسلم قليلة جدًا . ومن ثمَّ فلا شيء يُجيز لنا نعت مسلمي الاندلس بالعرب ، خصوصاً منذ الجيل الرابع بعد الفتح الاندلسي

وقد كانت لغة هؤلاء الناس في علاقاتهم العادية اللغة الاسبانية . حتى انه في داخل الأُسر الاسلامية القليلة ، التي كانت تُفاخر باصلها العربي ، لم يكن يجري التفاهم بالعربية بل بالاسبانية . فنرى على الجملة انه كان في الاندلس لغتان جاريتان معاً: الاسبانية ، وهي لغة المعيشة العيلية والحياة اليومية ؛ والعربية وهي اللغة الرسمية ، لغة الحكومة ، والعقود ، والجامع ، والمدرسة . وان هذا الازدواج في اللغة لا يختصّ بالاندلس فحسب ، بل نراه في اكثر البلاد التي افتتحها العرب ، والتي احتفظ سكّانها باغاتهم الوطنية القديمة ، كاللسان البربري في مناطق المغرب ، والفارسي والتركي في المشرق . ولم يتلاشَ واحد من هذه الالسن امام اللغة العربية . لان الانسان ، مهما تعاظمت الطوارئ الخارجية عليه ، يفضل دائمًا ان يتفاهم مع بني قومه بما يدعوه الاوربيون « بلغة الامّ » ، بتلك اللغة التي تعلمها ، وهو لا يزال صبيًا يتنقل في حضن أمه

وهناك سبب ظرفي غاية في الاهمية ، كان يحول دون انتشار اللغة العربية في الاندلس ، وهو عدم وجود امّهات عربيّات ، حتى في الأُسر العربية الاصل . وذلك ان الفاتحين من العرب لم يستصحبوا نساء من عنصرهم . فأُجبروا على

١) *Disertaciones* : I, 10 etc...

التزوّج بنساء اجنبيّات عنهم . ولا يُستثنى احد من هذا الامر ، حتى ان افراد الأسرة الاموية المالكة في قرطبة كانوا يتخذون لهم نساء من الاسبانيّات ؛ وقد حسب الاستاذ ريبيرا ان هشام الثاني (٩٩٦-١٠٠٩) ، وهو الخليفة الاموي العاشر في الاندلس ، لم يكن في عروقه الّا جزء من الف من الدم العربي . وفي جميع الأسر الاسلامية كانت النساء والجواري اجنبيّات واكثرهنّ من العنصر الاسباني . فلم يكن بالامكان التفاهم في تلك الأسر الّا بلسان الاسبان الذي ظلّ مستعملًا جارياً على ما كان عليه قبل الفتح . ولنا من شهادات مؤرخي المسلمين انفسهم البراهين المتعدّدة على ذلك . فابن حَزْم (١ يذكر ، كحادث نادر غريب ، وجود قبيلة عربية في ضواحي قرطبة لم تزل تحافظ على عاداتها القديمة فلا تتكلم الا اللسان العربي ، وهو يلاحظ ان افرادها من رجال ونساء ايضاً ، لا يفهمون اللغة الاسبانية . فنرى من هذه الملاحظة ان الكاتب يقرّ ضمنيًا انه ، حتى في الاسر التي كانت تجاهر باصلها العربي ، كانت اللغة الاسبانية جارية في التخاطب والتفاهم

هذا ولنا برهان آخر في قول كاتب ثانٍ من بلاد الاندلس وهو الخُشَني . فانه يروي حادثة جرت على عهد عبد الرحمن الثاني (في النصف الثاني من القرن التاسع) اذ اقيمت دعوى على « قاضي الجماعة » في قرطبة . وقد حُكم على القاضي المذكور ، بفضل شهادة أدّاها احد سكّان قرطبة ، وكان شيخاً جليلًا « مقبول الشهادة ، ومشهوراً في العامّة بالخير ، وحسن المذهب . » فهو اذن من افاضل المسلمين . الّا انه كان اسباني الإسم ، يُدعى « بنايز » ، ولم يكن يمكنه الإفصاح الّا باللغة الاسبانية . وقد قال عنهُ الخُشَني المذكور (٢ : « كان اعجمي اللسان » أدّى شهادته « باللفظ الأعجمي » اي الاسباني . وقد نظرت محكمة قرطبة في دعوى ثانية من هذا النوع ، جرت فيها جميع المرافعات باللغة الاسبانية (٣

١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص : ٢٢٠ ، من مخطوطة تونس
٢) الخُشَني : كتاب القضاة بقرطبة (طبعة Ribera ، ١٩١٣) ص : ٩٦
٣) الخُشَني : الكتاب المذكور ، ص : ١٣٩

ثم ان مسلمي اسبانية كان من عادتهم ان ينعتوا عظماء رجالهم بالقاب وكنى بعيدة عن الاعتبار ، وقصدهم في ذلك نقد اعمالهم ، او التهكم على بعض صفاتهم . ولمّا كانت كل هذه النعوت والالقاب متّخذة من اللغة الاسبانية — من امثال « كميلو : Camello » (جمل) « وبطرا سكا : Petra Seca » (الحجر الجافّ) وهو لقب احد مشاهير مجلاتهم — جاز لنا ان نستنتج ان الشعب الذي كان يخترع هذه الالقاب كان يستعمل اللسان الاسباني في معاملاته اليومية وعلاقاته العادية

وقد تحقّق امر ازدواج اللغة بين مسلمي اسبانية الجغرافي السوري المشهور المقدسي (من اواخر القرن العاشر) ، فقال في كتابه « احسن التقاسيم » واصفاً الاندلسيين الذي شاهدهم بكثرة في مكة ، اثناء الحج (ص:٢٤٣) : « لغتهم منغلقة مخالفة لما ذكرنا في الاقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومي . » وهذا اللسان الآخر هو اللسان الاسباني ، الذي « يقارب الرومي » بالحقيقة ، كما قال المقدسي ، لانه مشتقّ من اللاتينيّة

فكل هذه البراهين المتعددة تؤيد نظرية الاستاذ ريبيرا في انه كان لمسلمي الاندلس لغتان مختلفتان كما ذكرنا

* * *

ونحن نختم كلامنا راجين من الله ان يمدّ سنين عديدة حياة الاستاذ ريبيرا ، فيتابع باجتهاد واتقان ابحاثه النفيسة . هذا ما نتمنّاه باسم « المشرق » للعالم الاسباني الكبير . امّا كتّابنا الذين يهتمّون بالاندلس وتاريخه وآدابه فاننا ننصح لهم ان يستفيدوا من اعمال مستشرقي الاسبان ، ويسيروا في انوار معارفهم ، لان اهل البيت ادرى بما فيه !